الشعر في السودان

للأستاذ علي العماري

- ٣ -

قلت في مقالي السابق إن التدين ظاهرة واضحة كل الوضوح في الشعب السوداني، وأن الشعراء قد استجابوا لهذه البيئة المتدينة فكانت صورتها فيما نظموا من شعر.

ولكن لا يمكن أن تخلو جماعة من الجماعات البشرية من الطيب والخبيث، والغث والسمين، وفي الشعب السوداني كما في كل شعب نقائص ومثالب دينية واجتماعية، فهل استجاب الشعراء أيضاً لهذا المظهر؟ وهل صوروا العيوب التي تقع عليها أعينهم كما صوروا المحاسن؟

نستطيع أن نلتمس الجواب فيما كتبه الشاعر حمزة الملك في مقدمة ديوانه «الطبيعة» قال: «إننا نجهل أنفسنا فلا أستبعد ألا يرضى بعضنا عن بعض أوصاف صادقة لبعض الأفراد والجماعات وفي هذا كل الخطر».

نحن مرضى، ولا خطر علينا من تشخيص الداء، ووصف للحصول على الشفاء، إنما الخطر كل الخطر في المكابرة والادعاء، والزعم بأننا أصحاء أشداء. وإنه لمن أجدى الأمور لنا أن نعرف أنفسنا كما هي فنصلح ما فيها من عيوب، وهي وإن كانت عيوباً تمت إلى أسباب بعضها طبيعي، وبعض طارئ استوجبه اضطراب أحوال البلاد في السنين الماضية، فإنها كالأمراض التي لا يستعصى علاجها.

ومع ذلك فإني لا أنسى أن أذكر لهذه المناسبة أننا من أكثر الشعوب تهيؤاً للإصلاح بعد الهنود».

فهو — إذن — يرى عيوباً، وهو يعتقد أن من الصالح له ولقومه أن ينبه على هذه العيوب، وأن يصورها، ويدعو قومه إلى مجافاتها؛ وهو يشعرنا في كلمته بأنه يعتذر عن هذا الذي أقدم عليه من ذكر هذه النقائص، فلا شك أنه كان يشعر بحكم الوسط الذي يعيش فيه — بأنه من غير اللائق أن يتحدث الشاعر عن رذائل قومه، ولكنه يرى الشعر رسول الإصلاح، ويرى الشاعر طبيباً اجتماعياً من واجبه أن يقف من المجتمع — ولا سيما المجتمع المتدين — موقف الناصح الأمين. غير أننا لا نجد الشاعر نفسه عالج بشعره شيئاً مما تراه عيناه، ونجد من الشعراء الآخرين إحجاماً عن الخوض في مثل هذا الحديث. نعم نرى من الشعراء من يصيح بقومه أن الدين قد وهى سلكه، وانتثر عقده، وضعف سلطانه على النفوس، كأن يقول الشاعر الشيخ عبد الله عبد الرحمن صاحب ديوان (الفجر الصادق):

بعدنا عن الدين الحنيف وعديه ... فيا ويلنا إن دام هذا التباعد

أو يقول:

من أين يرجى للبلاد تقدم ... والدين لم ترفع له أعلام

أو يقول:

خذوا بيد الفضيلة وانشروها ... فإن من المروءة أن تهونا

وهنا قد يبدو سؤال لا بد منه، فإننا ذكرنا في مقالنا السابق أن من أظهر صفات السودانيين التدين، فكيف يتفق هذا مع ما يردده شعراؤهم في الحين بعد الحين من الشكوى المريرة والرثاء للفضيلة والبكاء على الدين؟

وليس من الصعب الجواب عن مثل هذا التساؤل، فإننا إذا قسنا حياة الناس اليوم بما كان عليه الشعب السوداني منذ خمسين سنة لوجدنا البون شاسعاً، والفرق بعيداً، فقد كانت أجواء السودان معطرة بأنفاس الزهاد والصالحين، وكانت لهم السطوة الروحية، والهيبة الدينية؛ أما الآن فإذا وجدنا فإنما نجد أفراداً يعدون على الأصابع، فإذا أضفنا إلى هذا أن بعض وسائل المدنية قد دخلت السودان، وأن المحافظين غير راضين عن هذه الوسائل، فالراديو والقهوة، وتعليم البنت، والألعاب الرياضية الكثيرة، كل هذه مما يرى فيه المتدينون المحافظون إبعاداً عن الدين، مع الفوارق — بطبيعة الحال — بين هذه البعدات.

يبدو أن تعليم الفتاة في السودان كان يلاقي جدلاً طويلاً عريضاً، وأن كثرة كاثرة كانت ترى فيه هدماً للدين، فجعلت تحاربه، وتبدي مخاوفها من السفور المنتظر، وأن قوماً كانوا يؤيدون فكرة تعليم الفتاة. وأنا وإن لم أجد صورة واضحة في

الشعر لهذا الجدل ألا إني قرأت هـذه الأبيات للشاعر الشيخ حسيب على حسيب فى قصيدة عنوانها (دعوها) يقول فيها :

دعو فى خدرها ذات الدلال ... فقد أرهقتموها بالجـدال
تذوب وقد تناظرتم حياء ... بفحش اللفظ أو هجر المقال
ويعلو خـدها خفر ينادى ... ألا ما للنساء من الرجال
أحيـا فى مناجاة الغوانى ... ترى أم ذاك زهـد فى المعالى
عجبت لحلمهم فى كل خطب ... وإن ذكر البنات دعوا تزال

وتأخذ المولد صورتها المعروفة فى كل قطر من الأقطار الإسلامية ، ويمضى الوعاظ والمصلحون يرد القائمين بها عن هذه المخازى التى تكون فيها ، فلا نعدم الشاعر السودانى الذى يدلى بدلوه فى هذا المضمار ، فهذا الشاعر محمد القرشى يقول :

أرى بدعا تشيب لها النواصى ... إذا ما جاء ميلاد الرسـول

ويتحدث عن مظاهر الاحتفال بهذا المولد من رايات وطبول وأنوار كثيرة ، ثم يتحدث عن ساحات اللهو وبعضى فيذكر (ربات القلائد والحجول) ثم يقول :

تجر ذيولهـــا متبرجات ... لتفتـك بالتبرج والذيول
يجتمع الفجار مقـــامرات ... مع الشبان فى الجمع الوبيل
مسارح للظباء خرجن فيها ... مراسح للخلاعة والخمـول

ثم يستطرد فى وصف تمـك عنه حتى يقول :

مصائب فى بنى الإسلام حلت ... وفاجعـة تجل عن المثيل

وحديث الشعراء السودانيين عن النفاق مستفيض ، والنفاق — فى ظنى — أبعد الصفات عن الخلق السودانى الذى طبع على الصراحة والشجاعة ، ولـكن هكذا يقول الشعراء .

وأكثر ما أشكو النفاق فإننا ... ابـناء من دون النفوس تيابا
تأصل واستشرى وأمعن مفـداً ... ورد البيوت العامرات خرابا
وأنشب فى روح الشباب مخالبا ... وأعمل فى روح الشبيبة نابا

ويقول الشاعر حمزة الملك :

أمـة فى غيهـــا غارقة ... بعد أن جرعها الله الشقاء
قسمت أعمالها بين هوى ... ونفاق وخمـــول وادعاء
تلك أدواء دهت أقطارها ... أم الشرق ســواء بــواء
ضـاع شرع الله فيما بينهم ... منذ ضـاع وفاء وإخاء

أما أنا فأزعم أن هـذا الشاعر كان نائراً حين نظم قصيدته (الدويم) نطاش من يده القلم فقال ما قال مما يعف كاتب عن ذكره :

ويحدثنا الشاعر الـكبير الشيخ محمد سعيد العباسى [1] عن بعض العيوب التى يراها :

وكائن رأينا من أخ قل خيره ... يطيء عن الجلى كأن به سقما
ضعيف كليل الفهم أكبر همه ... وأكثره الا يجوع ولا يظما
وإن خف قوم للمعالى رأيتـه ... يجوس خلال الدور للشـادن الألفى
وقد عابنى من لا يقوم بشهدى ... وليس له مثلى الفداة سمى يحمى
وجاء بأمـــوال التمـاويد والرقى ... ولشياء لحرى لا أرى ذكرها حزما

ونكتفى بهذا القدر فى هذه الفرض ، وموعدنا بالحديث عن الشعر الاجتماعى ، والشعر الغزلى ، والشعر الفكاهى ، وبالحديث عن شعر المدرسة الحديثة ، أحاديث تالية إن شاء الله .

(للحديث بقايا) على العمارى

(١) من كبار الشعراء السودانيين ، ومن أحسنهم ديباجة ، وأعمقهم معنى ، وأجلهم أسلوباً ، وهو — كما قال — صاحب شعراء السودان — يعد فى الطبقة الأولى من شعراء السودان حسن السبك ، متين الأسلوب ، وهو سليل بيت مجد وشرف ، ولا بد أن مصر تعرفه حد المعرفة ، كما أنه يعرفها معرفة العاشق الوفى ، ومن شعره الرقيق :

مصر وأيام الشبا ... ب الغض ، من لى بهما !

محمود الخفيف

يقـــدم

من وراء المنظار

صور انتقادية فكهة من حياتنا الاجتماعية